مكانة المرأة في المجتمع الجزائري

أ/ نوارة نافع

مقدمة:

لقد عرفت المرأة عبر العصور والحضارات تاريخا حافلا بالأحداث على جميع المستويات وظلت تنتقل من حال إلى حال ومن وضع إلى آخر. فقد كانت في بعض الحضارات والديانات كالمسيحية واليهودية تعاني من المكانة الدونية ونظرة الازدراء. حيث اعتبرت علة الخطيئة وسبب الشقاء وذلك لعهد طويل، ثم تغير وضعها بفعل عدة عوامل منها ما هو اجتماعي وسياسي وثقافي فتحصلت على الكثير من حقوقها كحقها في التعليم وحقها في العمل ثم واصلت المطالبة بحقوقها السياسية ومساواتها مع الرجل إلى يومنا هذا. أما في المجتمعات العربية فقد عرفت المرأة هي الأخرى تقلبات في مكانتها داخل المجتمع فقد كانت في العصر الجاهلي توأد وهي حية ولم تكن لها مكانة ولا احترام في مجتمعها إلى أن جاء الإسلام وكرمها ورد لها جميع حقوقها المغتصبة وجعلها شقيقة الرجل وسوى بينهما في الحقوق والواجبات، ولكن هذه الفترة من التاريخ العربي الإسلامي لم تدم طويلا فقد تدخلت عوامل تاريخية وأخرى ثقافية لتعود المرأة إلى سابق عهدها من الدونية فقد كان للانحطاط الذي أصاب الأمة الإسلامية الأثر البالغ في فقدان المرأة لمكانتها على مر الأيام. وعلى اعتبار أن المجتمع الجزائري جزء لا يتجزأ من العالم العربي الإسلامي فسنسلط الضوء على مكانة المرأة في هذا المجتمع في ظل التغير الاجتماعي والاقتصادي الذي عرفه المجتمع الجزائري بعد الاستقلال، وسياسة التصنيع الذي أحدث العديد من التغيرات والتحولات على صعيد الأسرة، من حيث حجمها وتوزيع أدوارها، وانتقالها من النمط التقليدي إلى النمط الحديث.

توزيع الأدوار داخل الأسرة التقليدية:

عرف المجتمع الجزائري التقليدي مبدأ الفصل أو الحدود بين عالم الرجال والنساء، ففي التربية التقليدية نجد أن التفرقة بين الذكر والأنثى تكون منذ الولادة في ألوان اللّباس فيخصص

اللّون الوردي للبنات واللّون الأزرق للذكور كما تربى الفتاة بطريقة مختلفة عن الذكر فهي منذ نعومة أظافرها تربّى على أنها تنتمي إلى مجتمع النساء تشعر أنها جزء لا يتجزأ منه[1].

بينما يربى الولد بطريقة مختلفة تماما عن الأنثى فهو ينتمي إلى عالم الرجال أي العالم الخارجي ويعدّ لكي يكون رجل البيت فيما بعد فهو يتعوّد منذ صغره على القيادة والسّلطة فيتربى ويتكيف عقليا خلال طفولته وفقا لدوره الذكري.

فمنذ الطفولة المبكرة يتعرض الأولاد والبنات لعمليات تربوية متباينة فألعابهما ولعبهما مختلفة وتعكس أدوارهما المستقبلة كل منهما يجد تشجيعا وتوجيها لأعمال معينة، فالفتيات يمنحن حماية أكبر ويكبرن على توقع هذه الحماية أما الأولاد فهم أكثر اعتمادا على أنفسهم.

فشخصية الفرد هي نتيجة التنشئة الاجتماعية التي يتلقاها في وسطه الاجتماعي بكل ما تحويه هذه الكلمة من ثقافة وقيم موروثة وتقاليد يقوم الفرد بالرجوع إليها كإطار مرجعي طوال حياته ولا يتصرف إلا وفقها.

تربية الفتاة في العائلة التقليدية في المجتمع الجزائري:

تستقبل الفتاة في العائلة التقليدية دون أي مظاهر فرحة وبهجة وذلك حتى من طرف الأم التي تدرك جيدا أنها حتى وإن رضيت بهذه الصّبية وفرحت بها إلا أن المحيطين بها لن يفرحوا بقدومها، وتختلف حياتها تماما عن حياة أخيها الذكر وذلك منذ اللحظة الأولى من حياتها، فهي ستكون في خدمته وخدمة كل أشقائها الصغار وهي التي ستقوم بحراستهم[2].

أما الأم فهي في كل مراحل حملها تتمنى أن يكون المولود ذكرا فالثقافة السائدة آنذاك تجهل أن الأب هو المسؤول عن جنس الطفل كما تجعل الأم هي المسؤولة الوحيدة عن عدم الإنجاب. وفي منطقة الأوراس مثلا يقال للأب: "إن الذي أعطاك البنت يستطيع أن يعطيك الولد والحمد لله أن الأم بخير" وهذا لتصبيره في الفاجعة التي ألمت به.

أما في منطقة القبائل فيقال لقد ولد لنا فرد آخر ولكنه لا يعمر الدار ولا يدفع العدو.[3] وهكذا فإن المحيطين بالمولودة كلهم يستقبلونها بحزن. تقول الدكتورة آسيا جبار: وهي تصف لنا إحدى الأمهات وهي تلد بنتا: "بجانبها زوجة أخيها تندب حظها وتقول: "امرأة تلد امرأة إنها لن تصلح إلا لتكون خادمة لنا".[4]

ففي سن مبكر جدا تتعلم الفتاة الأعمال المنزلية وحتى فترة اللعب تنتهي مبكرا لأنها ستحضر للزواج فلا بد أن تكون في المستوى حتى تتباهى بها أمها أمام أهل زوجها مستقبلا، فالأم تدرك منذ ولادة ابنتها أنها ستغادرها يوما إلى أسرة أخرى أين تكون سفيرة لأسرتها.

ومنذ السنة الأولى تهتم الأم بوجه الفتاة فهي تقوم بوضع الكحل في عينيها في اليوم السابع كما تقوم بالكثير من الطقوس لتجميل ابنتها لتعدها ليوم زفافها كأجمل عروس.[5]

ومنذ السنوات الأولى تبدأ الأم بتربية البنت تربية قاسية فإذا بكت فإنها لا تواسيها وفي كل مرة تصحّح أخطاءها أكثر من الولد فيجب تعليمها أن تكون مطيعة وليّنة الطّبع وتعلّمها الصبر والتحمل، فبالنسبة إلى الأم، تربية الفتاة مهمة صعبة، ومنذ هذا العمر تمنع من اللّعب مع الذكور ولا تبقى في حضرة الرجال إلا إذا كان الأب أو الإخوة الأصغر. الذين يتحكمون في الأخوات وبنات العم، والبنت يجب أن لا تكلم الرجال أو تضحك معهم ولا تقبل شيئا منهم، كما تتفادى الطريق الذي يمر منه الرجال ولا تخرج للتسكع، وفي السن الثالثة تتعلم الفتاة أمور الدين من المحيطين بها.[6]

كما أن وجود الفتاة في الأسرة يخلق هاجسا للأب وللأم بصفة خاصة فأي خطإ يقع من الفتاة تتحمل عواقبه الأم لأن في العائلة التقليدية الأم هي المسؤولة على تربية الفتاة، فالكثير من حالات الطلاق وقعت بسبب فقدان البنت لعذريتها وهذا ما يجعل الأم تدفع ثمن فقدان شرف ابنتها[7].

وهذا ما يفسر لنا القلق الزائد الذي يحيط علاقة الأم بابنتها فتكون نتيجة ذلك الصّرامة الشديدة في تربية الفتاة حتى تضمن الأمان، أي عدم طلاقها، فالفتاة أو المرأة بصفة عامة هي مصدر الفضيحة لذلك فإنها تبقى دائما تحت الرقابة من طرف أفراد عائلتها الذكور.

فلهذا يرتكز الإطار التربوي للفتاة في العائلة التقليدية على العديد من المعاني الأخلاقية من أهمها، العيب، الطاعة، الحرمة، الحشمة وهذه المعاني هي التي تضمن لها الشرف لأن شرفها هو شرف العائلة بأكملها ولا تنجح هذه التربية إلا إذا تعلمت الفتاة الطاعة العمياء لسلطة الأب.

ويتم تلقين الفتاة بعض قواعد الحديث منها أن يتسم كلامها بالحياء فلا يعلو صوتها أو تتلفظ بلفظ قبيح أو تضحك بصوت مرتفع خشية أن تلفت أنظار الذكور، كما تعلمها الأم أن تجلس بطريقة لا تظهر عورتها أو مفاتن جسدها ويزيد الأمر كلما تدرجت الابنة في العمر.[8]

والتلقين لمبادئ الحشمة والتفرقة بين الذكور والإناث لا يقف عند هذا الحد بل يمتد إلى الهندسة المعمارية التي تبنى بها البيوت في المجتمعات العربية حيث إن "البيت وهو العالم الداخلي يجب أن يكون محميا وذلك عن طريق الأسوار العالية والبوابات الموصدة والشبابيك المغلقة دائما وهذا ما يعبر عنه بالحرمة".[9]

وكل هذه التدابير التي تتخذها الأسرة، الهدف منها هو إبعاد الفتاة ثم المرأة عن العالم الخارجي حيث يخاف عليها من خطر الاحتكاك بالرجال وهذا الخطر كله يتركز في

عذرية المرأة التي تتعلم المحافظة عليها حتى قبل سن البلوغ. أما بالنسبة إلى الزوجة فحتى يضمن الزوج أن أبناءه كلهم من صلبه كما يقول بوتفنوشت في هذا الصدد "لتحقيق هذه الاستقامة الجسدية يتخذ المجتمع عدة احتياطات كالحجاب واحتجاب المرأة من كل أجنبي عن العائلة، تحديد وتضييق دائرة الاتصال والاحتكاك وعدم البروز أمام الرجال وعدم التبرج وإبداء الزينة أمامهم".[10]

وقد كانت الفتاة تمنع حتى من حقها في التعليم وذلك لأن الاعتقاد السائد كما يقول الأستاذ "غيتا الخياط" هو أن التعليم الطويل المدى يضيع أنوثة الفتاة أو يعطل تزويجها فيكون له نتائج وخيمة على إنجاب النساء كما أنه يخاف من أثر تعليم الفتاة على عاداتها تجاه والديها فيما يخصّ الطّاعة والتواضع.. كما أن المرأة المتعلمة تصبح منافسا لزوجها وهذا ما يمسّ بمكانته كرجل.[11]

رغم أن الإسلام ينادي بالعلم وفرضه على كل من الرجل والمرأة إلا أن العادات والتقاليد تأتي لتحرم المرأة من هذا الحق.

أما عن عمل المرأة في الأسرة التقليدية فإنه لا يخطر لها على بال فهي تحتاج دائما إلى من يعيلها ويقوم بتلبية طلباتها المادّيّة والاجتماعية.[12]

فعمل المرأة سيعيد النظر في تقسيم المراكز بين الرجل والمرأة ويعطي المرأة سلطة لا يستهان بها حيث يمنحها الاستقلالية عن زوجها وهذه الامتيازات تثبط قوة ومركز الزوج الذي تعود عليه. كما أن عمل المرأة يجعل منها منافسة لزوجها على الدّور السّلطوي الذي يتمتع به[13]

فقد خص المجتمع التقليدي الجزائري الرجل بالكثير من الامتيازات التي تجعله دائما يتفوق على المرأة كما استبعدت المرأة عن العالم الخارجي وعن الحياة الاجتماعية ككل، حتى تبقى دائما مجرد تابع للرجل وحتى يسهل عليه انقيادها لأن المرأة إذا تعلمت فستعرف حقوقها وما لها وما عليها. كما أنها إذا عملت فستستقل ماديا ولا تحتاج إلى من يعيلها وهذا يهدد النظام البطريكي الذي يسير عليه المجتمع الجزائري. ويبقى الحصار على الفتاة حتى تصل إلى سن الزواج. هذه الأخيرة- سن الزواج- التي يجب أن تكون مبكرة، الشيء الذي يشرّف العائلة. بينما الفتاة التي يتعطل زواجها، فهي تسبب قلقا لعائلتها خاصة إذا كانت الفتاة سيئة السيرة فإن زواجها في أقرب وقت هو حماية لها. ولهذا تقام الحواجز بين الذكور والإناث، ولهذا تحجب البنت وتمنع من الدراسة فمصيرها هو الزواج وهو سترة لها وأمان لأسرتها. وتشكل البنت في العائلة التقليدية عبءا ثقيلا على أسرتها لأنها تمثل شرف هذه العائلة الذي يضيع إذا أخطأت الفتاة وتصرفت أي تصرّف لا يتفق مع العادات والتقاليد التي وضعها المجتمع.

وتستقبل الفتاة بهذه البرودة لأنها لن تحمل اسم العائلة ولن تستطيع الدفاع عن هذه الأسرة في حالة ما هددها أي خطر خارجي كما ستكون عبءا ثقيلا على أهلها من حيث إنها تضيف لهم مصاريف خاصة عند تزويجها وهذا ما يفسر لنا لماذا الكثير من المناطق في الجزائر يفضلون تزويج بناتهم من أبناء العم، فذلك لكي لا تخرج ثروة العائلة وأموالها إلى الأغراب. كما يفسر لنا لماذا تحرم الفتاة من الميراث، لكي لا ينتقل الإرث إلى عائلة أخرى (فقد حدث في إحدى قرى ولاية تيزي وزو سنة 1948 اجتماع دار النّقاش فيه حول حصّة المرأة في الإرث وكان الهدف هو تجريدها من هذا الحق ومن لم يكن له ذكور منحت ثرواته للحبوس)[14].

كما أنه لا يخفي علينا أن الإقتصاد الذي يتركز على خدمة الأرض في الأسرة التقليدية يتطلب يدا عاملة ذكورية، فإذا كان الولد يقوم بتنمية رأس مال الأسرة وتحسين الأوضاع الحياتية للجماعة، فإن الفتاة على عكس ذلك ليس لها أية فائدة اجتماعية أو اقتصادية فالفتاة تسمع دائما عبارة "أنت لست إلا بنتا"[15].

وهذا يعني أنك لا تصلحين إلا للأعمال المنزلية فلا تتطلعي إلى أكثر من هذا ولذلك يرسخ في ذهن الفتاة أنها لا تصلح للعالم الخارجي وأن الرجل أعلى مرتبة منها وهو دائما الخبير بأمور الحياة وهو الذي عليه حمايتها وإعالتها. ولهذا نشاهد غالبا في الأسر التقليدية المرأة أضعف شخصية من الرجل.

ظهور الأسرة الحديثة والتغير الأسري:

التغير الاجتماعي: فبعد أن كان النمط التقليدي هو السائد في المجتمع الجزائري ونظرا إلى ما عرفه المجتمع الجزائري من تغيرات في سائر المجالات الحياتية ونتيجة للنزوح الريفي تقلص حجم الأسرة فأصبحت الأسرة النووية هي السائدة اليوم في المدن الحضرية خاصة.

"والأسرة النووية تنسب إلى الأسرة النواة الزواجية التي تجمع الأب والأم والأبناء غير المتزوجين فتشكل أسرة قليلة العدد وصغيرة الحجم"[16].

وهي نتيجة انفجار العائلة البطريكية والحضر والتمدرس وبعيدا عن ضغط العائلة والجيران فإن الزوجين يعيشان نمطا مختلفا عن النمط التقليدي وقد فرض ضيق السكن وحياة المدينة هذا الشكل الذي يتحدد بالزّوجين والأطفال الذين لا يعتمدون على موارد العائلة الكبيرة ولهذا كان مفروضا عليهما أن يكون لهما أجر دائم وكبير.[17]

الأمر الذي يدفع بالعلاقات الأسرية إلى النزوع نحو الفردية حيث ينتشر أفراد العائلة الممتدة عند قدومهم إلى المدينة في أحياء متباعدة تحت تأثير العمل والسكن والتعليم، أو في مدن مجاورة أيضا.. ومما يدعم هذا الاتجاه الفردي هو الزواج من خارج الأسرة أيضا.[18]

ولا شك أن هذا التباعد بين أفراد العائلة والأقرباء يضعف الرّوابط القرابية وبالتالي تضعف حدة العادات والتقاليد عند الفرد وتتغير الكثير من القيم التي كانت سائدة في الأسرة التقليدية، كتعليم الفتاة، خروج المرأة إلى العمل المأجور، السلطة داخل الأسرة، الحقوق السياسة للمرأة فلم تعد المرأة في الأسرة الحديثة شيئا مهملا يجب إخفاؤه أو كائنا يجب إخضاعه وتعليمه الطاعة والسكوت بل أصبح للمرأة الكثير من الحقوق التي حرمت منها في الأسرة التقليدية وقد كانت وضعية المرأة في الأسرة التقليدية نتيجة للكثير من العوامل منها: ما هو تاريخي ومنها ما هو ديني أو بالأصح فهم خاطئ للدين ومنها ما هو راجع إلى التقاليد.

إلا أن ما نلمسه هو أنه رغم التغيرات ورغم التجديد في أساليب التنشئة الاجتماعية إلا أن المبادئ والقيم التقليدية لم تمح كلها ولم تتلاش، لأنها وإن غابت في بعض الأسر إلا أنها بقيت حاضرة في أسر أخرى مازالت متمسكة بالتقاليد والقيم حيث لم يتمكن بعض الأفراد من التخلي عنها واستبدالها بقيم أخرى لأنهم لم يقتنعوا بصلاحيتها لتربية أبنائهم، فبالرغم من تغير وضعية الأسرة بحصولها على امتيازات كثيرة من تمدن وتحرّر فإنها بقيت محتفظة في طياتها ببذور من الأسرة التقليدية.

وضعية المرأة في المجتمع الجزائري:

وضعية المرأة الجزائرية أثناء الاستعمار: لقد أحدث الاحتلال الفرنسي تغييرات جد سريعة وعميقة في الأسرة التقليدية بعد الاستقلال، فبعد أن كانت المرأة منتجة فقد شتت الاستعمار هذه الأسرة وغير مكانة المرأة فأصبحت تهتم بأشغال البيت وكان لا بد أن ننتظر سنة 1954 حتى يبدأ التغير في مكانة المرأة الجزائرية، وهذا التاريخ يتزامن مع الثورة المسلحة في الجزائر الذي أحدث تغييرا في الخلية العائلية.

فالابن في الجهاد والزوج في السجن والأم وجدت نفسها مضطرة إلى أن تسعى لقضاء حاجات أسرتها، أما الفتاة فهي التي تحضر المؤونة للمجاهدين وتخيط لهم الرموز والأعلام وهناك منهن من تلتحق بالمجاهدين فهذه المشاركة كما ترى F.Fanon هي بداية التغير في ظروفها، فهذه الوضعية خلقت قيما هذه الأخيرة تمخض عنها علاقات جديدة بين الجنسين[19] فقد كانت المرأة هي الواسطة فهي التي كانت تحمل السلاح أو الرسائل كما كونت جمعيات نسوية "الوحدة الفرنسية الإسلامية للنساء الجزائريات" التي تشكلت في أفريل 1937 وشاركت المرأة في

السياسة، فبعيدا عن أشغال البيت كانت النساء تلتقي فيما بينها تتكلم في مشاكل السياسة، وهذه التجمعات كانت تنشطها طالبات ثانويات أو مساعدات اجتماعيات أو ممرضات ومن ثم عرف الرجل أنه يجب أن يعطي بعض المسؤوليات للمرأة التي أظهرت أنها كفء له.[20]

ومما لا شك فيه أنها بهذا العمل الوطني جعلت كل شخص ينظر إليها باحترام وعزة وحققت بذلك احترام أهلها ومجتمعها.

ويذهب البعض إلى التأكيد على أن المرأة الجزائرية خلال حرب التحرير ضربت أروع مثل في البطولات والاستشهاد، فالرجل وحده لم يكن يستطيع أن يتحمل أعباء المسؤولية وحده لولا مساعدة المرأة له، فقد واجهت المرأة العدو حتى في ساحات القتال بجانب أخيها المجاهد وكافحت حتى الاستشهاد، كما شاركت في المظاهرات الشعبية.. وقامت بوضع القنابل في الأماكن المقررة وقامت بتكوين خلايا من النساء نظاميا للتوجيه والتنشيط وزيادة على هذا كله وقفت المرأة مسؤولة عن مقومات الثقافة والتعليم متفطنة لدور الإغراء الذي مثله المستعمر معها قصد كسب ثقتها لأنها على رأس خلايا المجتمع فقد رأى أنه لا أحسن وأضمن طريقا للوصول إلى تدمير شخصية وأصالة وتقاليد هذا الشعب إلا بالاستيلاء على عقل المرأة لتكون أداة لتحويل الأسرة وبالتالي المجتمع عن هذه الأصالة.[21]

وفي البرنامج الاستعماري كانت المرأة هي محور الاهتمام لأنها هي التي يمكنها أن تؤثر على الرجل، فإذا استطعنا إقناع المرأة وربحها لصالح القيم الغربية وإخراجها من وضعها الحالي فقد تحصلنا على سلطة كبيرة على الرجل ووصلنا إلى طريقة ناجعة لتحطيم الثقافة الجزائرية.[22]

هكذا كان يخطط المستعمر وهكذا أراد أن يؤثر على المرأة إلا أنها لم تخضع أبدا لمخططه بل انتهجت طريقا غير الذي أراده لها المستعمر.

وضعية المرأة الجزائرية بعد الاستقلال: رغم كل أبعاد الثورة إلا أنه بعد الاستقلال مباشرة لم تساهم كثيرا في تغيير واقع هذه المرأة التي بانتهاء الثورة مباشرة رجعت إلى وظيفتها الأساسية التي يفرضها عليها المجتمع وهو الزوجة المطيعة والطفلة المستسلمة وآلة الإنجاب فعملية تحررها في تلك الفترة كانت مرحلية فقط فكل الأوصياء طرحوا السلاح بعد الثورة... وحملوه من جديد للدفاع عن الشرف.[23]

إلا أنه لا يمكن أن نغفل عما حققته المرأة من مكاسب مثل التعليم والعمل فبعد التحولات والتغيرات التي عرفها المجتمع الجزائري بعد الاستقلال وسياسة التصنيع التي تولتها الجزائر كان لا بد أن تنعكس آثارها على مظاهر الملكية والأفكار العامة المتعلقة بحياة

الفرد وبالتالي على وضعية المرأة ومكانتها ومن بين أهم العوامل المغيرة لوضعية المرأة هي التمدرس والعمل المأجور.

التّمدرس:

إن التّمدرس هو عامل أساسي، لتكون للمرأة صورة جيدة عن نفسها وهو الذي يعطي للمرأة، كرامتها التي ستكون القاعدة المهمة ،في تأسيس شخصيتها وهويتها، فالتعليم إلى مستوى المتوسط أو العالي، يكون أحد العوامل لتحرير المرأة التي ستجد السلاح القوي لتأخذ حقوقها.

وقد كان التّمدرس، نتيجة لانفجار الخلية العائلية التقليدية ونزوحها إلى المدن بعيدا عن العشيرة، فالكثير من الآباء الذين يعيشون في المدينة، لا يتحرجون من إرسال بناتهم إلى المدارس ويسمحون لهم بإكمال مشوارهم الدراسي. (24)

فبعد أن كانت المرأة لا تبرح البيت ولا تعرف سوى أشغاله اليومية أصبحت تشارك الرجل فضاءه الخارجي وبعد أن كانت النساء تمنع من التعلم أصبحت تشارك زميلها الرجل في مقاعد الدراسة وحتى في مدرجات الجامعة فيما بعد.

ففي سنة 1930 بداية الحركة الوطنية الجزائرية افتتحت مدارس للبنات وبدأت الفتيات في الالتحاق بها.

ولكن بعد الحرب العالمية الثانية عرفت مكانة المرأة تطورا كبيرا فالتحقت الفتيات بالدراسة الثانوية ثم الجامعة.

قد ترتب على تعليم المرأة تحريرها بالتدريج من بعض التقاليد والحرمان السياسي الذي كان مفروضا عليها وتشغيلها في الوقت نفسه في مختلف المهن المتخصصة. (25)

والتعليم هو الذي دفع عجلة التغيير في مكانة المرأة وفي وعيها بذاتها وحقوقها وواجباتها نحو مجتمعها فعرفت المرأة أن عليها تحديد مصيرها ومستقبلها دون أن يملي عليها أحد سلوكاتها وتصرفاتها.

خروج المرأة إلى العمل المهني المأجور:

لم يكن من الطبيعي أن تعمل المرأة في الوسط التقليدي حيث إنها دائما تحت مسؤولية الرجل سواء الأب أم الأخ أم الزوج، فلم تكن بحاجة إلى العمل خارج البيت، بل إن الرجل الذي يترك أخته أو زوجته تعمل يلقب بأبشع الأسماء وأقبح الصفات فهو رجل ناقص الرجولة لأنه لم يقدر على إعالة أسرته والإيفاء بحاجياتها، كما أن هناك من يرفض عمل المرأة

بدعوى المحافظة على شرفها لأنها في نظر هؤلاء قاصر والقاصر لا تعرف ما ينفعها وما يضرها، وكما تقول الدكتورة نوال السعداوي "ويتجاهل هؤلاء الرجال أن الملايين من النساء الفلاحات اللائي يخرجن كل يوم من بيوتهن للعمل..." [26].

فقد عملت النساء من القديم في زراعة الأرض وتجفيف الثمار وتربية الماشية وصناعة الفخار وغزل النسيج..

وقد دخلت المرأة العربية كعاملة في المصنع بعد الحرب العالمية الأولى حين قلت الأيدي العاملة من الرجال، وبدأت الدول العربية شأنها شأن دول العالم تحتاج إلى تشغيل النساء في المصانع بالإضافة إلى ازدياد نشاط الصناعات المحلية لانقطاع البضائع المستوردة بسبب الحرب، ويدفع الرجل زوجته أو ابنته خادمة في بيت فيه رجال أو يلحقها بمصنع حيث تعمل مع الرجل دون أن يفكر في تلك التقاليد الأخلاقية التي تحرم الاختلاط.

فإن ارتفاع المستوى المعيشي يدفع في الكثير من الأحيان النساء إلى العمل المأجور حتى تشارك في مصاريف البيت لأن الدخل الوحيد للزوج لم يعد يكفي، كما أن الكثير من الأرامل والمطلقات يضطررن إلى العمل حتى ينفقن على أنفسهن، كذلك نساء من عائلات كثيرة العدد أو من يكون الأب فيها عاطلا عن العمل أو أجرته لا تفي حاجات الأسرة كما قد يكون الأب متقاعدا، وهناك من تعمل لتجهيز نفسها، ولكن إذا كانت هذه المرأة متزوجة، فإن المشكل يصبح أكبر، حيث إن الرجل لا يفهم أن زوجته، تصل في نفس الوقت الذي يدخل فيه البيت، وعليه أن يساعدها في أشغال المنزل، وهو إن قام بهذا فهو من باب المعروف. بل إن هناك من يعتبر مساعدة الزوجة ضعفا في الرجولة ولهذا فإن الرجل يعاني دائما من عقدة الخوف من الضعف وكما تقول سعاد خوجة: "أنا لا أفهم الزوج الذي يقبل قواعد الحياة المدنية عندما تعطيه زوجته مرتبها ويرفض هذه القواعد عندما يكون عليه أن يساعدها". [27]

أثر عمل المرأة وتعلمها على وضعيتها الاجتماعية:

لقد كان اقتحام المرأة للعالم الخارجي يقابل بالرّفض والاحتجاج، إلا أنّ الوضع قد تغير وأصبح خروج المرأة للتّعلم، أو خروجها للعمل، شيئا مألوفا خاصّة مع ارتفاع القدرة الشّرائية، حيث أصبح الزّوج أو الأب، يحتاج إلى راتب المرأة لمساعدته على أعباء الحياة، وتقبل الكثير عمل المرأة وتعلّمها وذلك لمواكبة العصر وتطوراته، خاصة في الجانب الاقتصادي الحرج، الذي يعيشه المجتمع حاليا. وقد كاد هذا الوضع أن يقضي على نظرة الاحتقار التي كانت تلازم المرأة التي تغادر بيتها وتخرج إلى عالم الرجال، كما يحلو للبعض أن يسميه ولكن بالرّغم من تبنّي الكثير من الرّجال لمفهوم العمل حديثا، إلا أن الكثيرين لا زالوا يتصرفون

وفق منظومة القيم التقليدية ويرفضون عمل المرأة خاصة المتزوجة، والبعض منهم يعلن رغبته في ممارستها لبعض الأعمال ورفضه لقطاعات أخرى، فيحصرون المرأة في قطاع التعليم أو الطب أو التمريض زعما منهم أن هذه القطاعات الوحيدة التي تناسب أنوثتها.

وتشير آخر الإحصائيات إلى أن نسبة النساء اللائي يشتغلن لا تمثل سوى 9,2٪ من مجموع اليد العاملة النشيطة في الجزائر، ويرجع تضاؤل هذه النسبة إلى عدة عوامل منها ما هو اجتماعي وديني، ثقافي وذاتي متعلق بالمرأة في حد ذاتها. (28)

وعمل المرأة يحرّرها بفعل انفتاحها على العالم الخارجي وتألق شخصيتها، ويستلبها حين يغدو مهمة شاقة إضافية لأن التجهيزات الاجتماعية تعاني من النقص ولأن الذهنيات الرجعية التي تنظر إلى عمل المرأة من خلال جوانبه السلبية تظل متواجدة (29).

وكثيرا ما ينقلب عمل المرأة إلى استغلال لها، عوض أن يصبح استقلالا لها وذلك عندما يستولي الزوج على راتب الزوجة ويحملها مسؤولية الإنفاق على البيت. وفي هذه الحالة، فإن عملها أضاف لها أعباء أخرى ومشاكل جديدة، ما دام الزوج يرجع إلى البيت ليستريح، بينما تعود هي لتعمل من جديد دون مساعدة من هذا الزوج الذي إذا كان عاملا، فمن المفروض أنه عمل نفس عدد الساعات التي عملتها المرأة.

وكثيرا ما يصبح العمل مشكلا جديدا بالنسبة إلى المرأة عندما تصبح هي المسؤولة عن مصاريف البيت فتستغلّ من طرف الزّوج أو الأخ أو الأب فكثيرا ما سمعنا عن آباء رفضوا تزويج بناتهنّ لأنهم سيخسرون دخلا زائدا.

كما أن عمل المرأة لم يتحول في وعي الرجل إلى قيمة أساسية مكونة لهوية المرأة الاجتماعية والمهنية ومؤثرة في نظرة المجتمع إليها حيث إن التنشئة الاجتماعية التي تلقاها الرجل أثرت في نظرته إلى المرأة ورغم أن التغير الاجتماعي قد جعل الكثير من القيم التي تخص المرأة تتزحزح قليلا إلا أنه لم يقض عليها كليا حيث إن هناك عوامل أخرى عديدة تجعل من الصعب القضاء على بعض الأفكار والقيم الخاصة بمكانة المرأة من بينها الفهم الخاطئ للدين.

الفهم الخاطئ للدين وأثره على مكانة المرأة:

لعل من أقوى الأسباب التي جعلت نظرة الدونية تجاه المرأة لا تزال عالقة في الأذهان عند بعض الرجال هي الفهم الخاطئ للدين وتأويل الآيات والأحاديث تأويلا خاطئا حتى من طرف بعض الفقهاء فقد جعل الكثير من الناس آية القوامة بمثابة السلاح الذي تضرب به المرأة كلما أبدت رأيا أو تصرفا إلا وقيل لها: الرجال قوامون على النساء. بمعنى أنه ليس لك حرية

التصرف في أي شيء دون العودة إلى هذا الرجل الذي هو قوام عليك رغم أن الله قه أعطى القوامة للرجل حتى يخفف عن المرأة المسؤولية، إذ جعل نفقتها ونفقة أولادها على الزوج لتتفرغ لدورها كأم وكزوجة إذا كانت متزوجة. والقوامة لا تعني أن يتولى الزوج جميع القرارات دون استشارة الزوجة لأن البيت الإسلامي مبني على الشورى وهو مبدأ أساسي من مبادئ التعامل داخل الأسرة والقوامة لا تعني السلطة المطلقة للزوج ولا تعني الاستبداد بالرأي ولا تعني أفضلية الرجل على المرأة إلا أن تفسير بعض الفقهاء والعلماء للقوامة بهذه الصورة هو الذي جعل الأسرة في المجتمع الإسلامي أسرة أبوية تجعل الحكم والسلطة في يد الأب وهذا يختلف تماما في ميزان الإسلام عن مفهوم القوامة.

وجعل الكثير من الرجال أيضا من الحديث الشريف "النساء ناقصات عقل ودين" برهانا ودليلا على نقصان عقل المرأة ورجحان عقل الرجل وتفضيل جنس الرجال على جنس النساء وقد ذهب بعض الفقهاء إلى تشبيه المرأة بالطفل الصغير حيث قال الشيخ العثيمين رحمه الله: "فخلقة المرأة تخالف خلقة الرجل فهي ملولة ضجرة ضعيفة التحمل سريعة العاطفة يمكن لكل أحد أن يتلاعب بعاطفتها وليس لها عند المصائب إلا البكاء والنياحة..."[30].

والعاطفة عند المرأة في الحقيقة خلقها الله ليس لينتقص من قيمتها وليس لكي يفضل الرجل عليها ولكن لأنها خلقت من أجل مهمة جليلة وهي الحمل والولادة والسهر على رعاية طفلها وهذا يتطلب منها أن تكون ذات عاطفة جياشة حتى تتحمل هذه الأعباء التي لا يمكن لرجل أن يتحملها. واختلافها عن الرجل ليس اختلاف دونية وإنما اختلاف أدوار ووظائف. ويقول شيخ القرضاوي في شرحه لهذا الحديث: إن صياغة الحديث ليست صياغة تقرير قاعدة عامة أو حكم شامل وإنما هي أقرب إلى صيغة التعجب من صفة التناقض القائم في نساء الأنصار فهن الضعيفات وقد تغلبن على الرجال ذوي الحزم. فالتعجب هنا من حكمة الله. ونقصان العقل هنا هو نقص عارض مؤقت نتيجة للتغيرات الطبيعية في حالة الحيض أو الحمل... أو نقص عارض طويل المدى وهو يطرأ على المرأة نتيجة ظروف الحياة العامة كالانشغال الدائم بالحمل والولادة والرضاعة والتربية ومراعاة البيت. مما يؤدي إلى نقصان الوعي بالحياة الخارجية وضعف الإدراك الشامل للأمور العامة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية الداخلية والخارجية.[31]

ومن خلال هذه الاستشهادات وكثير غيرها نلاحظ أن الآيات القرآنية كثيرا ما فسرت تفاسير مبنية على النظرة المتحيزة ضد المرأة فحرمت الفتاة من الدراسة والعمل والخروج

وإثبات ذاتها وزوجت دون رضاها، كل هذا باسم الإسلام الذي هو بريء من كل هذا وإنما نسبت إليه دونية المرأة وتفوق الرجل ظلما وبهتانا.

الخاتمة:

إن وضع المرأة الجزائرية منذ القديم وإلى يومنا، لا يختلف عن غيرها من نساء العالم فقد عانت هي الأخرى من الدونية، ولكن عرفت بالمقابل أيضا فترات اعترف لها بما قامت به أثناء الثورة التحريرية من أدوار مشرفة، وبعد التغير السريع الذي اجتاح المجتمع الجزائري والذي أثر في العائلة بصفة خاصة كما أثر في منظومة العادات والتقاليد التي يتميز بها النظام الاجتماعي التقليدي، خرجت المرأة إلى ميدان العمل والتعليم، وتسلمت مهامً خارج البيت، محاولة بذلك إثبات وجودها ومكانتها، وعليه فالتعليم والعمل بالنسبة إلى المرأة الجزائرية قد فتح لها آفاقا واسعة بحيث أخرجها من تلك الدائرة الضعيفة التي كانت تعيش فيها، وبالرغم من هذا التغير الواضح في مكانة المرأة إلا أنه تغير شكلي فقط، دعت إليه في الكثير من الأحيان الحاجة الماسة لدخلها حيث إن الرجل لا يزال يتمسك بمكاسبه التقليدية، ويحتفظ بالعادات والقيم التي استقاها من النسق القيمي والثقافي الخاص بوسطه الأسري، وباقي مؤسسات التنشئة الاجتماعية التي مر بها والتي أثرت في تصوراته وسلوكاته بالرغم من أنه تحرر من بعضها، نتيجة للتغير الاجتماعي والتعليم إلا أن وضعية المرأة الجزائرية، تعاني من ازدواجية في الأنساق القيمية حيث تخضع وضعيتها إلى قيمين متناقضين أحدهما تقليدي والآخر حديث وهذا يعود إلى الموروث الثقافي الذي بقي صامدا أمام التغير الاجتماعي.

المراجع والحواشي:

(1)Nefissa Zerdoumi: Opcit, p 137.

(2)Nefissa Zerdoumi: Op.cit, p 34.

(3)Camille la coste du jardin: Des mères contre les femmes, Ed Bouchène, Alger, 1990, p58.

(4)Sonia Ramzi Abadir: op.cit, p 114.

(5)Camille la coste du jardin: Op.cit, p 62.

(6)Camille Lacoste du jardin: Ibid, p 56.

(7)Radia Toualbi: Op.cit, p 51.

(8)مجموعة من الأساتذة: المرأة والمجتمع وجهة نظر علم الاجتماع، دار المعرفة الجامعية، القاهرة، 1998، ص ص 260- 261.

(9)Claudine Chaulet: La terre Les frères Et l'argent, Office des publications universitaires, Alger, 1987, p 930 Tome 3.

(10)مصطفى بوتفنوشت: مرجع سبق ذكره، ص 80.

(11) Ghita el Khayat- Bennai: Op.cit, p 107.

(12)Sonia Ramzi Abadir: Op.cit, p 116.

(13)Zohra Abassi: La demande de divorce dans la famille algérienne contemporaine, OPU, 2004, p 119.

(14)محفوظ حورية: رغبة المرأة في إنجاب الذكور، رسالة لنيل شهادة الماجستير في علم الاجتماع، تخصص ثقافي، قسم علم الاجتماع، جامعة الجزائر، 1996/1995، ص 42.

(15)Borcelle Germaine: Métier au féminin, Unesco, 1985, p 58.

(16)مصطفى بوتفنوشت: مرجع سبق ذكره، ص 40.

(17) Souad Khodja: Op.cit, p p 49-50.

(18)محمد السويدي: مرجع سبق ذكره، ص 90.

(19) Radia Toualbi: Op.cit, p 45.

(20)Ramzi: Abadir: Op.cit, p 59.

(21)سلسلة الملتقيات: كفاح المرأة الجزائرية، مرجع سبق ذكره، ص ص 140- 144.

(22) Frantz Fanon: Sociologie d'une révolution, Editions Maspéro, Paris, 1975., p 20.

(23)زينب الأعوج: مرجع سبق ذكره، ص 30.

(24) Souad Khodja: Op.cit, p 91.

(25)عبد القادر القصير: مرجع سبق ذكره، ص 83.

(26)نوال السعداوي: مرجع سبق ذكره، ص 114.

(27)Khodja Souad: Op.cit, p 162.

(28) عطاء الله تاج: مرجع سبق ذكره، ص 110.

(29) Aicha Belarbi: femme partagées famille travail, Ed la femme, Maroc, 1988, p 11.

(30) w.w.w.Ibnothaimeen.com.

(31) w.w.w.qaradawi.net.